# الفصل الأول

## الكشوف البرتغالية والاستعمار الأوربي
## على السواحل الأفريقية

- العوامل التي أدت إلى الكشوف البرتغالية في أفريقيا.
- مراحل كشف طريق رأس الرجاء الصالح.
- الكشوف البرتغالية الداخلية في أفريقيا.

**أولاً** : الحبشة .

**ثانياً** : الساحل الغربي.

**ثالثاً** : الكونغو وأنجولا.

**رابعاً** : الساحل الشرقي.

**خامساً** : كشف منابع النيل.

**سادساً** : جنوب أفريقيا.

obeikandi.com

**العوامل التي أدت إلى الكشوف البرتغالية في أفريقيا :**

كان من أثر الحملات الصليبية أن اعتاد الأوربيون الأسفار وتحمل المشاق واتسعت معلوماتهم عن الأرض ، وما بها من أقطار مختلفة ، وقد لعبت العوامل الدينية دوراً كبيراً في حركة الكشوف الجغرافية ، كما لعبت دوراً كبيراً في تخطيط سياسة البرتغال أثناء حركة الكشوف ، حيث تملكتهم رغبة قوية في مطاردة المسلمين في غرب أفريقيا وتحويلهم إلى المسيحية ، وتحول أثيوبيا إلى المذهب الكاثوليكي وفصلها عن الكنيسة القبطية الأرثوذكسية في مصر [١] كان الدافع الديني من أهم دوافع البرتغال منذ أن نجحوا في طرد العرب من أيبيريا وتعقبوهم بعد ذلك لشواطئ أفريقيا الشمالية والغربية ثم وصلوا إلى رأس الرجاء الصالح فشرق أفريقيا في محاولة للوصول إلى تجارة الشرق التي كانت عصب الحياة الاقتصادية في دولة المماليك التي كانت تبسط نفوذها على الشام ومصر والحجاز [٢].

ومن المعروف أن الدافع الأساسي لهنري الملاح في جهوده الاستكشافية هو العامل الاقتصادي بجانب العامل الديني ، فقد كان مؤمناً بإمكان الطواف حول أفريقيا والوصول إلى الهند عن طريق هذا الطريق ، وبالتالي الحصول على الأرباح الطائلة التي تستأثر بها مدن إيطاليا البحرية لاحتكارها التجارة مع الشرق.

ويتداخل العامل الاقتصادي مع التعصب الديني في دفع البرتغاليين نحو السياسة التوسعية التي اتبعوها في شمال أفريقيا منذ احتلال البرتغال لمدينة سبتة في عام ١٤١٥[٣].

الجدير بالذكر أن هنري الملاح كان رئيساً لهيئة اليسوعيين (الجزويت) التي ورثت الداورية في أملاكها وبالتالي كان يهمه العمل على كسب أراضي وميادين جديدة للمسيحية ، لذا أمضى نحو أربعين عاماً في إعداد الحملات الاستكشافية وإرسالها إلى شواطئ أفريقيا الغربية حتى تم كشف بعض الجزر المهمة في المحيط الأطلسي مثل جزيرة ماديرا Madeiras عام ١٤٢٠ وجزر كاناري وجزر أزور Azores (١٤٣١

– ١٤٤٤) هذا بالإضافة إلى بعض المراكز على شاطئ أفريقيا مثل الرأس الأبيض Cape Blanice ١٤٤١ والرأس الأخضر Cape Verde ١٤٤٦ [٤].

ويظهر أثر العامل الاقتصادي بوضوح إذا ما عرفنا أن مراكش اقترنت دائماً في أذهان البرتغاليين بتشييد اقتصاد الإمبراطورية البرتغالية ، إذ كان هدف القائمين بأعمال الكشف والاستعمار في ساحل أفريقيا الغربي هو أن يزودوا من مراكش بالقمح والخيل ليشتروا بها الذهب من الرؤساء الأفارقة الذين يتعاملون مع المحطات البرتغالية ثم يستخدمون هذا الذهب لشراء التوابل من الشرق الأقصى [٥].

ليس هذا فحسب فإن التحسينات التي أدخلها البرتغاليون على بناء السفن والتي كان من نتائجها التمكن من صنع قوارب خفيفة تزن ٢٠٠ طن وقادرة على السير في الرياح.

وكذلك استخدام البوصلة في الملاحة البحرية وإدخال تعديلات على البوصلة القديمة بإضافة مؤشر يبين اتجاه الرياح الأمر الذي ساعد على تقدم الملاحة البحرية.

ذلك بالإضافة إلى أنه أمكن التغلب على الصعوبات التي كانت تعترض الرحالة في التقدم إلى الجنوب من رأس بوجادور والتي أهمها أن الرياح التجارية في هذه المنطقة تهب من الشمال الغربي فتجعل طريق العودة صعباً ، كما أن الساحل فقير ويصعب فيه الحصول على طعام أو ماء [٦].

وعلى وجه العموم فإن طبيعة الاستعمار التجارية البرتغالية انعكست على قصر اهتماماته على الأشرطة الساحلية مثل (ساحل غانا وساحل الذهب وساحل العاج وساحل الزنج وساحل مالابار ... إلخ ، وبدأت تجارة رابحة بين بلاد غانا وبين البرتغال ، إذ بدأ التجار والملاحون يقتنصون العبيد من تلك الجهات ويقومون بنقلهم إلى أسواق أوربا، وجنوا من هذه التجارة ربحاً وفيراً أغرى الكثير من التجار بالمغامرة والقيام برحلات متوالية إلى جهات أفريقيا الغربية ساعدت على التوسع في حركة الكشف ، وكانت موضع تشجيع الأمير هنري الملاح حتى مات عام ١٤٦٠ [٧].

**مراحل كشف طريق رأس الرجاء الصالح :**

وخلال الفترة ما بين عامي ١٤٣٤ ، ١٤٦٢ كان تقدم البرتغاليين تدريجياً على ساحل أفريقيا الغربي فاكتشفوا نهر السنغال ووصلوا إلى الرأس الأخضر Cape verde في عام ١٤٤٥ ، كما أنهم بعد وفاة هنري الملاح بعامين في ١٤٦٢ أبحروا في خليج غانة إلى أن وصلوا إلى النقطة التي أقاموا عليها فيما بعد قلعتهم المعروفة باسم "المينا".

ثم بدأ عام ١٤٧٠ وتوقفت حركة الكشف قليلاً ١٤٨٢ م ، وفي خلال هذه الفترة تمت اتفاقيات بين البرتغاليين وبعض القبائل الموجودة في غرب أفريقيا على إرسال بعثات لاكتشاف مناطق معينة ومن ثم ففي هذه الفترة تم اكتشاف الجزء المتبقي من ساحل غانا كما أنهم في عام ١٤٧٥م ، وصلوا إلى رأس كاثيرين Cape Catherine على خط عرض ٥٢ جنوباً.

والفترة (١٤٨٢ – ١٤٩٧) تميزت برحلتين قام بهما على التوالي ديجو كام Diego Cam وبارثولوميو دياز Bartholomaw Dias الأول قام برحلته في عام ١٤٨٢ م واستطاع أن يجمل النفوذ البرتغالي إلى مصب نهر الكنغو فوصل إلى رأس سانت ماري Cap st .Mary على خط عرض ٢٦ – ١٣ جنوباً كما أنه في رحلته في عام ١٤٤٢م ، وصل إلى رأس مونت نجرو Monte negro عند خط عرض ٤١ ْ ١٥ جنوباً وكاب كروس Cape Cross على بعد ٩ جنوب الرأس السابقة ، وبذلك تم في هذه الرحلة كشف ما يقرب من ١٤٥٠ ميل من الساحل الغربي لأفريقيا في منطقة يسودها تيار بنجويلا والرياح التجارية الجنوبية الشرقية.

أما الرحلة الثانية التي قام بها دياز في عام ١٤٨٧م ، فكان الغرض منها الوصول للهند وإيجاد مملكة القس بريستر جون التي قيل أنها تبعد قليلاً عن الساحل الغربي لأفريقيا ، وقد رحل دياز من لشبونة ووصل إلى الكنغو ومنها سار جنوباً إلى خليج والفيش Walifich وهناك تفادى التيارات البحرية التي تدور حول أفريقيا بالاتجاه

إلى الجنوب إلى أن وصل إلى نطاق الرياح الغربية ومن ثم اتجه شرقاً فشمالاً إلى خليج موصل Mosel Bey ومن هناك تمكن من الوصول بصعوبة إلى نهر جريت Creat Fish river

وفي طريق عودته مر بسهولة بمنطقة الكاب ووصل إلى لشبونة في عام ١٤٨٨ بعد أن اكتشف من الساحل الأفريقي حوالي ١٢٦٠ ميلاً [٨].

وكان يهدف للوصول إلى الطرف الجنوبي لقارة أفريقيا ، وقد نجح في مهمته ، ثم عاد إلى بلاده يحمل أكاليل النصر ، ونظراً لما قاساه من هول الزوابع عند طرفي القارة ، أطلق عليه "رأس الزوابع" ولكن ملك البرتغال عندما أيقن أنه حقيقة الطرف الجنوبي للقارة وأن هذا الكشف يشير إلى الوصول إلى الهند سماه "رأس الرجاء الصالح" [٩].

وفي عام ١٤٨٧ استدعى خوان الثاني ملك البرتغال المدعو بدرو دي كوفيلهام ألفونسو دي يافا Pedre de Covulham and Alfonra de Pauva وعهد إليهما بمهمة مزدوجة البحث عن مملكة الملك "القس يوحنا Prester John" وهي دولة مسيحية في مكان ما من الأرض (الصين أو الهند .. أو الحبشة) ومعرفة المكان الذي توجد فيه الدار صيني (القرفة) وغيرها من الأفاوية التي تستوردها البندقية عن طريق بلاد المسلمين Maarr.

والهدف من ذلك هو **أولاً** : محاولة الاتصال بتلك البلاد النصرانية للاتفاق معها على محاربة المسلمين ومقاومة توسعهم ، **وثانياً** : التغلب التجاري على البنادقة وذلك بمحاولة استيراد الأعطار والطيب والأفاوية بطريق مباشر إلى البرتغال وفي الوقت الذي اتجه فيه رسولاً ملك البرتغال إلى الشرق كان دياز يتم اكتشاف الطريق البحري من البرتغال حتى الطرف الجنوبي من القارة الأفريقية ، ويستدير حوله متجاوزاً رأس الأعاصير (الرجاء الصالح ١٤٨٧ – ١٤٨٨م) [١٠].

وكان الرحالة البرتغالي بيدرو كوفيلهام (Pedro De Covlham) قد وصل إلى مصر في عام ١٤٨٧م وسافر عن طريق البحر الأحمر لعدن والهند ، وفي أثناء عودته زار أغلب المناطق العربية في الساحل الشرقي لأفريقيا ودخل جنوباً حتى شرم

سفاله (Sofala) ثم عاد إلى القاهرة [١١]. حيث قابل رسولين لملك البرتغال نقلاً إليه أمر الملك بالبحث عن مملكة القس يوحنا ، فأرسل مع أحدهما تفاصيل رحلته ثم سافر إلى جدة (ويزعم أنه زار مكة والمدينة مما يؤكد أن نجاحه عائد إلى معرفته العربية فحسب ، بل إلى ادعائه الإسلام) وانتهى إلى زيلع ومنها نفذ إلى الحبشة حيث استقبله ملكها استقبالاً حسناً ، وأقطعه أرضاً وتزوج سيدة حبشية ، ولم يسمح له بمغادرة البلاد ، وبعد ثلاثين عاماً وصلت سفارة البرتغال إلى الحبشة ومعها المدعو الفاريز ١٥٢٠م فكان كوفيلهام بحكم معرفته باللغات والعادات الحبشية خير معين لسفارة بلاده [١٢].

وقد فتحت المعلومات الهامة التي جمعها هذا الرحالة – العيون إلى أهمية المناطق العربية بشرق القارة ، وكان أساساً للرحلة التي قام بها فيما بعد فاسكو داجاما (Vasco Da Gama) حول رأس الرجاء الصالح ووصل إلى الإمارات العربية بشرق أفريقيا ثم الهند [١٣].

تتمثل هذه المرحلة في وصول فاسكوداجاما للهند بعد أن اكتشف ما يقرب من ٨٠٠ ميل من الساحل الشرقي لأفريقيا في المنطقة المحصورة ما بين المنطقة التي توصل إلى دياز والمنطقة التي عرفها العرب على ساحل أفريقيا الشرقي في الفترات السابقة ، وقد بدأ فاسكو داجاما رحلته الاستكشافية في عام ١٤٩٧ وكانت تضم ١١٨ بحاراً و٤ سفن صنعت اثنان منهما خصيصاً لغرض الرحلة وقد زودت هذه السفن بأحدث الأجهزة الخاصة بالملاحة في ذلك الوقت كما زود ربانيها بأحدث المعلومات التي تضمنتها الخرائط والكتب.

وبدأت الرحلة من نهر تاجوس Tagus في يناير عام ١٤٩٧ ووصل إلى الرأس الأخضر في يوليو من نفس العام ورحل في شهر أغسطس حيث اتجه نحو الجنوب متبعاً طريقاً مخالفاً لسابقيه بعيداً عن الساحل ، وفي ذلك يقول "إنني حتى ٣ نوفمبر من نفس العام لم أستطيع رؤية أية يابس ، كما أنه وبحارته لم يستطيعوا أن يعرفوا على وجه الدقة الطريق الذي سلكوه إلى أن شاهدوا الساحل أخيراً ورسوا في خليج سمي باسم سانت

هيلانه St. Helana . وهي النقطة الأولى ( التي حدث فيها اختلاط بين العناصر البرتغالية والهوتنتوت ومن سانت هيلانه أبحروا جنوباً ومروا على رأس الرجاء الصالح متجهين إلى خليج موصل حيث رسوا هناك ، وواصلوا السير بعد ذلك شمالاً حتى اكتشفوا في يناير سنة ١٤٩٨ نهراً صغيراً رسوا إلى جانبه حيث وجدوا هناك منطقة عامرة بالسكان ولذلك أطلق عليها اسم "أرض الرجال الطيبين" The Land of Good people كما سموا النهر باسم نهر النحاس وذلك نظراً لوفرة النحاس لدى الأهالي هناك ، بعد ذلك اتجهوا شمالاً إلى موزمبيق حيث قابلوا بعض التجار العرب وحصلوا منهم على كثير من المعلومات التي تتصل بالملاحة والتجارة في هذه المنطقة ، ومن مالندي اتخذوا قبطاناً من الأهالي واتجهوا إلى الهند مستخدمين الرياح الموسمية فوصلوا إلى الغابات الغربية للهند ورسوا بالقرب من كلكتا في ٢٣ مايو سنة ١٤٩٨م ، وبذلك تتم قصة كشف الطريق البحري للهند حيث يعود بعد ذلك فاسكو داجاما إلى لشبونة في عام ١٤٩٩م . بعد أن استغرقت رحلته ٦٣ يوماً قطع خلالها ما يقرب من ٢٤.٠٠٠ ميلاً بحرياً [١٤].

**الكشوف البرتغالية الداخلية في أفريقيا :**

**أولاً : الحبشة :**

كانت تجارة الحبشة في أيدي أبناء فينيسيا لفترة من الزمن ولذلك فكانت لديهم معلومات جيدة عن هذه البلاد ، تلك المعلومات التي جمعوها عن طريق الأهالي وبواسطة بعض الرحالة مثل كوفيلهام Covilham الذي زار تلك البلاد في عام ١٤٨٧ في نفس الوقت الذي رأى فيه البرتغاليون ضرورة بسط نفوذهم السياسي والحربي على الحبشة لتأمين طريقهم التجاري للهند ، ويضاف إلى ذلك فإن بعثات التبشير البرتغالية كان لها أثر كبير في الكشف الجغرافي في هذه المنطقة ، ففي عام ١٦٠٢ ذهب بيردر – بيز Perdro-pez إلى الحبشة حيث زار منابع النيل الأزرق وتوصل لاكتشاف السبب الحقيقي لفيضان النيل ، كما أنه في عام ١٦٠٤ ذهبت بعثة تبشيرية أخرى برئاسة أنطونيو فيرناندیز Antonio Fernandes إلى فريمونا ومصوع.

وقد قام لوبو j. Lebo أيضاً برحلة كان الغرض منها اكتشاف طريق جديد يصل الحبشة بمالندي ، وفي هذه الرحلة تتبع الساحل الشرقي لأفريقيا في المنطقة المحصورة بين جزيرة باتي ونهر جوبا وبعدها أدرك أنه لن ينجح في اكتشاف الطريق المزعم إيجاده فقرر الذهاب إلى الهند ، ومن هناك عاد إلى البحر الأحمر وذهب إلى فريمونا حيث اتخذها مركزاً لرحلاته المختلفة في بلاد الحبشة ، وإلى جانب الطريق البحري فقد قامت أيضاً إلى الحبشة بعثات كشفية عن طريق مصر ، ففي ١٦٩٩ قام دكتور بونسيه C. poncet برحلة من القاهرة إلى دنقلة وسنار والنيل الأزرق وغندار ومن ثم عاد إلى أوربا عن طريق مصوع.

**ثانياً : الساحل الغربي :**

على الرغم من أن اتصال الأوربيين بهذا الساحل يرجع إلى العصور الوسطى إلا أنهم لم يوجهوا أي رحلة كشفية للأجزاء الداخلية للساحل الغربي وكل ما أمكنهم الحصول عليه هو بعض المعلومات عن المناطق التي كان يتردد عليها العرب وتجار جنوة وفينيسيا وغيرهم من الرجال الذين كانوا مهتمين بتجارة شمال أفريقيا في خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، ففي عام ١٤٤٦ تمكن أحد التجار ويدعي مالفانتي Malfente أن يقوم برحلة إلى توات Tuat التي كانت مركزاً رئيسياً لتجارة الساحل الغربي لأفريقيا حيث سمع هناك من أحد التجار القادمين من تمبكتو عن أهمية بلاد النيجر بصفة عامة ، ولذلك فقد تمكن البرتغاليون من الوصول إلى هذه المدينة عام ١٤٨٧ ، كما أن نشاطهم التجاري في خلال القرن السادس عشر أدى إلى زيادة المعرفة الجغرافية للسواحل الغربية لأفريقيا الأمر الذي نتج عنه أن نشر ليو أفريكانوس Les Africains كتاباً تحت عنوان وصف أفريقيا Description of Africa وتضمن معلومات دقيقة عن الساحل الغربي لأفريقيا.

وفي خلال القرن السابع عشر كان التقدم نحو الأجزاء الداخلية للساحل الغربي بطيئاً ، ففي عام ١٦١٨ قام بول أمبير Paul Imbert برحلة من مراكش إلى تمبكتو

ووصف فيها المخاطر التي اعترضت طريقه ، كما أنه في عام ١٦٦١ تمكن تومبسون Thompson الإنجليزي من الوصول إلى مصب نهر غمبيا والإبحار فيه لمسافة ما يقرب من ٤٠ ميل ، هذا ويجب أن نلفت النظر إلى أنه على الرغم من أن هذه هي رحلات الرواد الأول للكشوف الداخلية للساحل الغربي ، إلا أن الكشف الحقيقي لهذا الساحل تبقى إلى نهاية القرن الثامن عشر حيث بدأ اكتشاف نهر النيجر.

**ثالثاً : الكنغو وأنجولا :**

منذ أن اكتشف ديجو كاما نهر الكنغو ، ونشاط البرتغاليين الكشفي في هذا الإقليم كبير ، وكما حدث في الحبشة قاد القساوسة الكاثوليك ورجال الدين في الكنغو حركة الكشف الجغرافي ، ففي عام ١٥٤٠ وصلت حملة كشفية إلى المدينة التي عرفت فيما بعد باسم سان سلفادور San Salvador والتي تبعد عن الساحل ما يقرب من ٢٠٠ ميل ، حيث اعتنق ملكها وبعض مواطنيها الدين الجديد الأمر الذي ساعد المبشرين والقساوسة على سرعة الحصول على كثير من المعلومات عن هذه المنطقة ، غير أن عملهم توقف عام ١٥٧٠ بسبب تعرض الكنغو لغزو قبائل جاجاس Jaggas ومن ثم لم يستطيع البرتغاليون أن يستأنفوا نهضتهم الكشفية في الكنغو بعد ذلك إلا في خلال القرن السابع عشر.

وفي نفس الوقت الذي اتجه فيه البرتغاليون وجه الاهتمام أيضاً إلى أنجولا فوصلوا إليها في عام ١٤٥٥ ، كما أنهم في عام ١٥٦٤ تمكنوا من تأسيس مركز لهم على الساحل بالقرب من لواندا Loanda وبذلك استطاع البرتغاليون مع نهاية القرن السادس عشر من تثبيت أقدامهم في أنجولا والاتجاه بعد ذلك إلى بنجويلا ، وفي خلال القرن السابع زاد معلوماتنا الجغرافية عن هذا الإقليم بفضل البعثات التبشيرية التي كان من أهمها بعثة كابوشينز Capnchius الذي وصل الكنغو عام ١٥٤٥ ، ونجح في الوصول إلى مانيانجا Manyanga بالقرب من مسقط الكنغو [١٥].

تتابعت بعد ذلك الأحداث وفي سنة ١٥٦٠ ترأس بولو دياز دي توفايس حفيد بارثليمو دياز بعثة إلى أنجولا تتألف من اثنين من القسس الجزويت وآخرين من الرهبان

عاد منها إلى لشبونة بعد خمس سنوات محملاً بالعاج والنحاس والعبيد حيث نجح بمعاونة الجزويت في حمل البلاط الملكي على أن يعينه أميراً لمقاطعة أنجولا في مقابل أن يقوم بحماية الأراضي التي يتمكن من فتحها وتكوين جيش قوامه ٤٠٠ رجل ونقل ١٠٠ عائلة إلى أراضي أنجولا على أن يمدهم بالحبوب والبذور والأدوات الزراعية اللازمة وان ينشئ ثلاث قلاع في المنطقة بين نهري دانده وكوانزا ، وقد حكم دياز ١٤ سنة (١٥٧٥ – ١٥٨٩) أسس فيها مدينة لواندا وعدداً من القلاع على طول نهر كوانزا ثم انهمك – تحت إلحاح الجزويت في ضرورة مد نشاطهم إلى المناطق الداخلية – في معارك دامية مع القبائل الإفريقية فقد فيها ألفين من رجاله بسبب الحمى والقتال ونجح في أن يتوغل ٧٠ ميلاً في الاتجاه الشرقي لم يفد منها هو والجزويت شيئاً ، وكان الطرف الرابح الوحيد هو تجار الرقيق الذين ساعدهم إنشاء مدينة لواندا وبناء القلاع الداخلية على التوسع في تجارتهم الرهيبة بحيث بلغ معدل المصدر من لواندا وحدها ٢٥٠٠ في السنة طوال الفترة من (١٥٧٥ – ١٥٨٧) ارتفع إلى ثلاثة أمثاله في السنوات الأربع التالية ، بالإضافة إلى الرقيق المهرب من الموانئ والمراسي الأخرى ، واستحقت أنجولا لقب (ملكة الرقيق أو الأم السوداء) الذي أطلق عليها في ذلك الوقت.

في سنة ١٥٩١ كتب دومنجو بريتو Domingo de Abren Brito المحامي البرتغالي تقريراً رفعه إلى البلاط الملكي في لشبونة طالب فيه باستخدام القوة الحربية لاتمام استعمار أنجولا ، وحث على إنشاء ١٢ قلعة وتكوين اتصال بري بين أنجولا وموزمبيق وطالب بسيطرة الحكومة سيطرة فعالة على تجارة الرقيق وتأسيس وكالة تجارية في بنجويلا وتشجيع استغلال المعادن والتنقيب عنها وترك الحرية لمن يرغب في ذلك على أن يحتكر التاج تجارة الملح.

وأصبح تقرير دومنجو مرجعاً للأبحاث التي تناولت هذا الموضوع بعد ذلك في القرون الثلاثة التالية كما كان سبباً في تأسيس حكومة الإدارة الاستعمارية لأول مرة وعين الجنرال فرانسيسكو الميدا Francisco Almeida حاكماً عاماً للمستعمرة.

**التنمية والكشوف الجغرافية في القرن السابع عشر :**

لم تشهد أنجولا حتى عهد قريب لوناً من ألوان التنمية اللهم إلا الاستغلال البغيض للسلعة الآدمية الذي مارسه البرتغاليون بنجاح منذ أن وطئت أقدامهم أراضي المستعمرة.

بدأت أنجولا تسير في هذا الطريق الأليم قبل بداية القرن ١٧ ، ولم تضع الدولة مخططاً لأي نوع من أنواع التنمية ، بل لم يكن بها حاجة لوضع ذلك المخطط ، فقد دفع المستعمرون والجزويت كل بدوره في جمع الرقيق والصراع على النفوذ والتكاتف ضد أي حاكم عام يحاول التدخل في نشاطهم.

أما في الداخل فقد بث البرتغاليون الفرقة والروح العدائية بين القبائل الأفريقية التي انطلقت يحارب بعضها البعض الآخر ، كما أنشأوا قلعة جديدة في موكسيما Muxima في أعالي نهر كوانزا عندما أصبح هذا النهر الطريق الرئيسي لتجارة المناطق الداخلية.

وفي سنة ١٦٠٤ عندما خابت آمال البرتغاليين في وجود الفضة بكميات اقتصادية في مناجم كامبامب Cambamba بعد أن زارها مانويل سرفييرا بيريرا Manuel Cerveria Pere-ira نائب الحاكم العام ، أصبحت تجارة الرقيق هي المورد الأساسي في المستعمرة بحيث كانت تسهم بنحو ٨٠ % من جملة النشاط التجاري هناك حتى سنة ١٨٣٢.

ومع ذلك فإن النشاط البرتغالي في هذا القرن يبدو واضحاً إذا قورن بمثيله في القرنين ١٨ ، ١٩ ، ففي سنة ١٦٠٧ توغل بالتازار ريبيلو أرجاو Baltasar Rebelo de Ara-gao ٤٠٠ ميل شرقاً في رحلة استكشافية له قام بها بناء على طلب مانويل فورجاز Manual Forjaz الحاكم العام للمستعمرة في ذلك الوقت للبحث عن مصادر جديدة للرقيق وكتب بالتازار بعد ذلك يقول أنه كان يستطيع مواصلة الرحلة حتى حدود موزمبيق.

وفي سنة ١٦١٧ أنشأ مانويل سرفييرا بيريا مدينة بنجويلا التي دخلت هي والأراضي المحيطة بها في نطاق السيادة البرتغالية بسبب ثروتها المعدنية وسيطرة على

الرقيق ، ومن مستعمرة بنجويلا أن تتخذ بنفسها طريقاً خاصاً في التنمية يختلف عما سارت فيه الأقاليم الأخرى المحيطة بها ، فقد كان المهاجرون الذين أسسوا هذه المستعمرة يتألفون من المنفيين واللصوص والهاربين الذين نزحوا من البرتغال والبرازيل والكنغو[١٦] ، وأصحاب الجرائم في هذه البلاد سوف تستمر جرائمهم في أفريقيا لأن الجريمة في دمائهم ، فالمجرم مجرم بطبعه ولما لم ينجحوا في منافسة تجار الرقيق خصوصاً وأن الهولنديين كانوا قد أسسوا قاعدة تجارية لهم في مصب نهر الكنغو اتخذوا منها مركزاً لأعمال القرصنة ضد السفن البرتغالية فقد لجأوا إلى استغلال موارد البيئة واشتغلوا بالزراعة والتجارة وصيد الأسماك ونجحوا بعد فترة وجيزة في تحقيق الاكتفاء الذاتي.

لم تقم حكومة الإدارة في لواندا – إذا استثنينا جهودها في بسط سلطانها حتى نهر كوالا – بعمل أي شيء في مجال التنمية والتنظيم ، بل كانت الحكومة ذاتها سبباً في ازدياد النشاط التخريبي في المستعمرة ، ويرجع ذلك إلى العجز المالي الذي كانت تعانيه حكومة الدولة وتوقفها عن تمويل حكومة الإدارة ، فقد ترتب على ذلك أن إنصراف الموظفيون من الحاكم العام حتى أصغر المستويات إلى البحث عن مواردهم المالية في تجارة الرقيق ، بفرض ضريبة الرؤوس ومطالبة الزعماء الأفريقيين بتسديدها عن قبائلهم ، ولما كان هؤلاء الزعماء عاجزين عن تسديد هذه الضرائب الباهظة ، فقد سمح لهم بأدائها على صورة رقيق. هل سكت المثقفون البرتغاليون على هذه الأوضاع غير الإنسانية ؟

لقد هاجم بعضهم من أمثال مانويل Canon Manuel وسيفرم دي فاريا Severim de Faria هذه الأوضاع ووجهوا لها النقد المرير وطالبوا بتنظيم التجارة والعمل على استقرار الأحوال وتنمية الاقتصاد والعمران ولكن صيحاتهم ذهبت هباءا.

ويدعى البرتغاليون أن مرجع الفوضى إلى الحروب القبلية ، وأن هذه الحروب كانت منتشرة قبل أن تطأ أقدامهم أرض المستعمرة ، أما سياسة القوة فقد كانوا مضطرين إليها اضطراراً إزاء الموقف الذي وجدوا أنفسهم فيه وفي مواجهة السكان المحليين من الوثنيين المتأخرين الذين لا يخضعون إلا للسوط والقوة العسكرية ، ولكن الواقع أن

البرتغاليين لم يهتموا بهؤلاء المتأخرين أبداً ، ولم ينحوا حقوق المواطن البرتغالي إلا للخلاسيين (المولدين الذين نشأوا من التزاوج بين الأفريقيين والبيض) ومن اندمج في الجالية البرتغالية بالرغم من مزاعم سالازار التي ادعاها من أن ما كان يتبع في الماضي تجاه الأقلية الإفريقية قد أصبح سياسة عامة تجاه الغالبية منهم [١٧] ذلك بالإضافة إلى أنه عام ١٦٥١تمكنت بعثة تبشيرية أخرى من الوصول إلى المناطق التي تقع إلى الشمال من "ستانلي بول" هذا وعلى الرغم من أنه ليس من السهل أن نتبع الطريق الذي سلكه أعضاء هذه البعثة في أثناء رحلتهم إلا أننا نستطيع أن نقرر أنهم تمكنوا من اكتشاف معظم المناطق الشمالية الشرقية من الكنغو إذا اكتشف نهر كوانجو Kwango كما أن بعض التفصيلات عن المنطقة التي تقع بينه وبين الساحل كانت معروفة لدابيه Dapper حيث كتب وصفاً لأفريقيا عام ١٦٨٦ [١٨].

وكان لاسيردا يعتقد أن لفنجستون يعمل على حرمان البرتغال من استعمار أقاليم هي من حقها وحدها ومن الاتجار فيها إلا أنه قد واجه الموقف مواجهة موضوعية ، فدافع عن حق بلاده في أسبقية الكشف والارتياد بعرض الوثائق المتعددة التي تبرهن على أن رعايا دولته قد سبق لهم ارتياد المناطق التي زارها لفنجستون أو كانوا على علم بوجودها ، وأن باروتسلاند وماكولولاند كانتا مصادر للعاج تعود الرعايا البرتغاليون على جمعة منهما.

أما بالنسبة لعبور القارة من الشرق إلى الغرب فقد أكد برتغالية الرواد الأول الذين قاموا بهذا العمل في عهد مبكر ، وعرض لرحلات كثيرة تالية قام بها برتغاليون في هذا الصدد ، وأثبت أن فرانسيسكو دي لاسيردا Francisco de la Cerda Almeida قد استكشف أراضي كازيمي Kazembe وأن الميجور جاميتو Gamitto والميجور مونتيرو Monterio قد ارتادها بعد ذلك بخمسين سنة ، كذلك زار البرتغاليون مرتفعات شاير The Shire higllands والمناطق المحيطة ببحيرة نياسا [١٩].

**الكشوف البرتغالية من لاسيردا حتى كارفالهو :**

كان من الصعب على لفنجيسون في النصف الأول من القرن التاسع عشر أن يتعرف على مدى نشاط البرتغاليين في الكشوف وتوغلهم في داخل أفريقيا بسبب قلة ما كتب عن هذا النشاط في ذلك الوقت حتى في البرتغال ذاتها ، والواقع أن البرتغال هم أول من اكتشف القارة بلا منازع ، فقد ظلت الحدود الإدارية لمستعمراتهم عدة قرون هي خط القلاع المنتشرة في داخل أنجولا وموزمبيق وزمبيزنا وأراضي المونوموتابا ، أما ما وراء ذلك فقد توغلوا لمسافات بعيدة في داخل القارة يتاجرون ويستكشفون ، وينشرون الدين المسيحي ، ويعودون بعد ذلك وقد لا يعودون أحياناً ، ولا زال عدد كبير من هؤلاء غير معروف حتى الآن ، فالبرتغاليون كانوا من هواة الكشف والارتياد مثلهم في ذلك مثل لفنجستون نفسه.

هذه الكشوف وذلك النشاط الفردي غير المنظم في داخل أفريقيا أبلغ في دلالته على النشاط البرتغالي في القارة من مستعمراتهم ذاتها على ما كانت عليه في الخمسينات من القرن التاسع عشر ، ولذلك فإن عبارة ليون كونز Leon Cahuns إن مقارنة خريطة لأفريقيا رسمت سنة ١٨٥٠ بأخرى مرسومة في نهاية القرن السادس عشر ... تحملنا على الاعتقاد بأن المناطق الداخلية في القارة كانت معروفة للناس منذ ثلاثة قرون أكثر مما أصبحت عليه قبل ثلاثين سنة والتي قالها سنة ٨٢٣ هـ تحمل من الحقيقة بقدر ما فيها من مبالغة (٢٠).

**وأهم الرحلات لديفيد لفنجستون هي :-**

أ) رحلة لاسيردا حاكم أنهار سينا Dr. Francisco Lacerda

ب) رحلة بابتستا وجوزيه عبر القارة Pedro Joa Baptista Amaro Jose

جـ) رحلة الماجور جامتو Jose Correia Monterio Antonio Pedroso Gamitto

وتعتبر رحلة لاسيردا التي قام بها سنة ١٧٩٨ في مملكة قبائل الكازيمية Kazembe وادي لوابولا Luapula وهي الأراضي التي تقع بين بحيرتي مويرو

Mweru وبانجويلو Bangweula أهم هذه الرحلات الثلاث ، وكان هدفها هو فتح طريق للتجارة البرية بين ساحلي القارة في الشرق والغرب.

كان لاسيردا يعارض تجارة الرقيق ، ويعتقد أنه يمكن إدخال المدينة الأوربية إلى هذه الأصقاع عن طريق تنشيط التجارة في الجهات الداخلية ، وهو أيضاً بعيد النظر ، تنبأ بأن احتلال البريطانيين لمستعمرة الكيب سنة ١٧٩٥ سوف لا يقف عند حد هذه المستعمرة وإنما سيتوغل في جنوب ووسط أفريقيا ، ومن ثم سيكون بمثابة اسفين يفصل المستعمرات البرتغالية في القارة إلى شرق وغرب ، وقد وصل في رحلته حتى بحيرة مويرو سنة ١٧٩٨ يصحبه عشرون برتغالياً وخمسون من الجنود الإفريقيين وذلك رغبة منه في تقوية مركز البرتغاليين ضد الهولنديين والإنجليز الذين توسعوا في جنوب أفريقيا ، لكنه مات على شواطئ البحيرة ، وعادت البعثة إلى طيط بعد أن كان لاسيردا قد رسم خريطة لمنطقة البحيرة وكتب عنها تقريره [٢١].

أما رحلة بابتستا وجوزيه وهما من الخلاسيين من سكان إقليم كاسانج في أنجولا فقد بدأت في الغالب من كاسانج سنة ١٨٠٢ ، ثم وصلا إلى أراضي الكازيمبة سنة ١٨٠٦ وزالا معتقلين لدى كازيمية الرابع الزعيم الأكبر لهذه القبائل لمدة أربع سنين واصلا بعدها حتى انتهيا إلى طيط وبذلك أتما الرحلة عبر جنوب القارة.

أما الميجور جامتو وزميله مونتيرو فقد أوفدتهما حكومة موزمبيق سنة ١٨٣١ – ١٨٣٢ إلى أراضي الكازيميه لاكتشاف منابع الزمبيزي ودراسة إمكانيات التجارة في هذه المنطقة ، وقد واجهت الرحلة صعوبات كثيرة وكتب جامتو وزميله بعد ذلك يقول إن التجارة مع شعب الكازيميه البربري ليست مربحة ولا داعي لها ، وبهذه الرحلات الثلاث انقطع توغل البرتغاليين في داخل القارة لمدة أربعين سنة.

أما رحلات سيلفابورتو ومعاصريه Silva Porto

كان أنطونيو فرانسيسكو داسيلفا – المعروف باسم سيلفا بورتو – بطلاً شعبياً ورائداً ثاقب الفكر يتمتع بعاطفة جياشة ، وكرم فياض اكتسحت شخصيته قلب أنجولا مدة

خمسين سنة وقد عاش سيلفا في مرتفعات بي Bie وأنشأ علاقات أبوية مع الأفريقيين ، وما زال البرتغاليون يذكرونه عندما يتحدثون عن قدرتهم على الاندماج في الحياة الإفريقية.

وصل سيلفا إلى لواندا سنة ١٨٣٩ ومنها إلى بنجويلا سنة ١٨٤١ ثم إلى بي بعد سنوات قليلة حيث استقر واتخذ له منزلاً في موقع أطلق عليه اسم بلمونت Belmonte يبعد عن المدينة الحديثة التي أطلق عليها اسم سيلفا (سيلفابورتو) بميل واحد ، وهناك تحول في هذه الجهات متاجراً وأنشأ طريقاً للتجارة من بي إلى بنجويلا.

ازدهرت التجارة في بي ومرتفعات أوفمبوند المجاورة Ovimbundu لمدة قرن من الزمان جاب خلاله البرتغاليون المنطقة ، ورشقوها بالقلاع التي يجمعون فيها العاج والرقيق خصوصاً بعد إلغاء تجارة الرقيق واحتكار التاج لتجارة العاج وإعلان حرية التجارة واستقر البرتغاليون في بي وأفيمبوندو وسيطروا عليها وأصبحوا أهم تجار جنوب أفريقيا وازدادت التجارة نشاطاً بعد فتح موانئ لواندا وبنجويلا للسفن الأجنبية مما أذهل لفنجستون عندما زار هذه المناطق.

وكان سيلفا من القلائل الذين يدركون أهمية هذه المنطقة ، وتوالت تقاريره والتي يحذر فيها البرتغاليين من عواقب إهمالهم لها ، وقد ساعدت هذه التقارير على أن تتخذ لشبونة سياسة ما ، خصوصاً في منتصف القرن الذي أوشكت فيه المناطق الداخلية في أنجولا أن تتعرض للإهمال التام.

وفي سنة ١٨٥٢ تكرر ظهور التجار السواحليين من سكان زنجبار في بنجويلا فبدأ سيلفا رحلته عبر القارة ووصل فيها إلى باروتلاند Barotsland حيث قرر العودة وفي طريقه إلى لواندا قابل لفنجستون ثم افترقا وسيلفا يعتقد أن لفنجستون فضولي يتدخل فيما لا يعنيه بينما لفنجستون يرى أنه ليس أكثر من خلاسي تاجر.

وعين سيلفا في سني حياته الأخيرة قائداً عاماً لمنطقة بي ، وأصبحت تقاريره إلى لشبونة تحمل إنذارات أشد لهجة ، فقد رأى أن زيارة لفنجستون لأنجولا قد حطمت سور

العزلة المضروب حولها ، وأن الاقتصار على تملك السواحل لم يعد بإنشاء الطرق التجارية والسكك الحديدية وإرسال البعثات التبشيرية وتعمير المناطق الداخلية والإكثار من الاستثمارات المختلفة في المستعمرة ، ثم انتهت حياة الرجل بصورة تراجيدية تحرك الضمير الإنساني ، فقد لف نفسه بعلم بلاده وأشعل النار في اثنى عشر برميلاً من البارود وضعها حوله بعد أن فشل في مفاوضات السلام التي قام بها بين زعيم منطقة بي الإفريقي وبين قوة من جيش بلاده كانت تهدف إلى احتلال باروتسلاند.

**معاصرو سيلفا :**

ذخرت الفترة المعاصرة لسيلفا بعدد من العلماء والمستكشفين في أنجولا منهم الرحالة يواقيم جراسا Joaguim Rodrigues Graca الذي ارتاد منابع نهر الزمبيزي ومنطقة لواندا التي تقع على حدود مملكة الكازيمبة في الفترة من ١٨٤٦ – ١٨٤٨ وعقد عدداً من معاهدات الصداقة مع الزعماء الإفريقيين هناك ، ومنهم العالم النمساوي فردريك ولفتش Frdrick Welwsch الذي قام بتكليف من حكومة لشبونة في الفترة من ١٨٥٢ – ١٨٦١ بدراسة النباتات الطبيعية في أنجولا وتجول في مناطق واسعة من المستعمرة وجمع من النباتات عينات قيمة ، ومنهم أيضاً جوزيه ألبرتو Jose Alberto الذي قام عدة مرات بالتجول في أنجولا بتكليف من حكومة لشبونة لجمع عينات لمتحفها ، وجمع هذه العينات وعينات أخرى لمعمله في كاكوندا.

لم يكن رجال الإرساليات الدينية والمستكشفون قليلي العدد في أنجولا وموزمبيق كما ذكر لفنجستون في ذلك الوقت ، رغم أن المستعمرتين كانتا من بيئات الصعوبة الدائمة بالنسبة للبرتغاليين والأجانب على السواء ، وعندما واجهت حكومة البرتغال تلك السنوات الحرجة في السبعينات وجد رجال الدولة أنه لابد من بذل مزيد من الجهد في إفريقيا ، يظهر ذلك سنة ١٨٧٦ من قول جاوكورفو Joao de Andrado Corvo وهو صحفي وأستاذ للتاريخ عمل في لشبونة وخارجها كوزير للمستعمرات والخارجية – ملخصا احتياجات بلاده في السياسة الاستعمارية العملية : "لن نستطيع بعد الآن أن نعيش حياة العزلة التي مارسناها من قبل عندما كانت مستعمراتنا في إفريقيا مجرد مخازن

نجمع فيها السلع والرقيق ، فعالم اليوم عالم عمل، وليس في قدرة أحد أن يحول دون تشرب المدنية أي جهة على وجه الأرض".

وفي ذات الموضوع عاد يقول في سنة ١٨٧٩ تتطلب مصلحة بلادنا في تصوري تنمية مستعمراتها وحمايتها فتلك هي الوسيلة الوحيدة التي تتمكن بها من احتلال المركز الذي تستحقه بين الأمم ، هذا التطوير وتلك الحماية هي دعامة عظمتنا في المستقبل.

**فترة ما بعد لفنجستون ومجهودات الجمعية الجغرافية :-**

اشترك جاو كورفو بالتعاون مع الأستاذ لوسيانو كوردير Luciano Cordeiro في تأسيس الجمعية الجغرافية التي أنشئت في لشبونة سنة ١٨٧٥ وبذلت الكثير من المجهودات في أفريقيا البرتغالية في الربع الأخير من القرن.

وقد كونت الجمعية لجنة خاصة باسم اللجنة الإفريقية عهدت إليها بالعمل على نشر الوعي والمعرفة بالشئون الأفريقية بين البرتغاليين عن طريق القيام بالأبحاث العلمية وارتياد المستعمرات الإفريقية ونشر المراجع العلمية التي تتناول النظم البرتغالية في إفريقيا ودراسة تاريخها وتطورها ، وقد نجحت الجمعية في أن تضيف جديداً إلى الدراسات الأفريقية كما أسهمت في تنمية الكبرياء القومي في البرتغال وساعدت على مواجهة التيار النقمة الجارف على الاستعمار البرتغالي في إفريقية ، والذي ساد أوربا في ذلك الوقت.

**رحلة كابيلو – إيفنز – بنتو :**

تعتبر هذه الرحلة أهم الرحلات التي نظمتها الجمعية كما تعتبر أهم رحلة جغرافية منذ رحلة لاسيردا إلى أراضي قبائل الكازيمبة.

كان هرمنجلدو كابيلو Hermenigildo Capelo وروبرت إيفنز Robert Ivens ضابطين شابين من ضباط البحرية ، أما الكسندر بنتو Alexandre Albero da Rocbe de Serpa pinto وهو ألمع شخصية بين زملائه فقد كان ضابطاً من ضباط الجيش ، وفي سنة ١٨٧٧ سافر الثلاثة إلى لواندا بقصد القيام

بمساحة هيدروجرافية لمناطق تقسيم المياه بين الكنغو والزمبيزي ورسم خريطة للمنطقة الواقعة بين أنجولا وموزمبيق ولكنهم غيروا خطتهم بعد أن وصلوا إلى أنجولا وبإرشاد من كورفو بهدف ارتياد المناطق المحيطة بمرتفعات بي ولكن بنتو انفصل عن زميليه بسبب خلاف شخصي وبدأ رحلته عبر القارة متتبعاً طريق التجار الأفريقيين حتى وصل إلى ليلوي Lealui في باروتسلاند ثم دلف جنوباً فوصل إلى مدينة دربان Durban على المحيط الهندي ، وكان لرحلته صدى كبير في الأوساط الأوربية وأصبح في بلاده بطلاً قومياً يعادل ليفنجستون وستانلي [٢٢] الذي أرسلته الجمعية الملكية الجغرافية بلندن للبحث عن ليفنجستون ، حيث قابله في تنجانيقا وعملا معاً [٢٣].

أما كابيلو وإيفنز فإن رحلتهما لم تصادف ما لقيته رحلة زميلهما من الشهرة والرواج رغم ما واجها فيها من تعب ومشقة ، فقد بدأ الرجلان من منطقة بي في اتجاه شمالي سارا فيه لمدة سنتين إلى كاسانجة Cassange ومالانجه Malange ثم على طول أعالي نهر كوانجو Cuango ومنه إلى لواندا ورسما أول خريطة متقنه لهذا الجزء من المستعمرة وأصدرا دورية مشهورة باسم De Benguela as Terras de Face.

وفي سنة ١٨٨٤ قام كابيلو وإيفنز – بتكليف من حكومة البرتغال برحلة إلى موزمبيق هدفها الظاهر رسم خريطة لحوض نهر الكوبانجو ودراسة إمكانيات التجارة في هذه المنطقة ، أما هدفها الحقيقي فهو كشف طريق بري للتجارة بين أنجولا وموزمبيق وتستطيع بواسطته البرتغال أن تدعي ملكية ممر عبر القارة.

ذهب الرجلان إلى موساميدس Mocamedes ثم إلى ليلوي واتجها شمالاً إلى كاتانجا ثم جنوباً إلى زومبو Zumbo وتتبعوا مجرى الزمبيزي حتى ميناء كيلمين على المحيط الهندي.

كذلك قامت رحلتان إحداهما إلى نيايا قام بها بنتو يرافقه أغسطس كاردوزو Augusto Cardoso والأخرى إلى كاساي قام بها دي كارفالهو Henrique Augusto Dias de Carvalho وكان الغرض من الرحلتين صراحة بسط السيادة

البرتغالية على هذه المناطق [٢٤]. رغم قضاء البرتغاليين على مملكة الزمبيزي منذ بداية القرن السابع عشر [٢٥].

تعددت مثل هذه الرحلات ذات الأغراض السياسية في أواخر الثمانينات تحت اسم الرحلات العلمية والتجارية لمجرد التضليل الذي قد ينطلي على بعض العلماء ورجال الأعمال ولكنه لا يخدع ساسة أوربا فقد تأكد البرتغاليون أنهم إذا أرادوا استخلاص منطقة شرق بحيرة نياسا وجنوب روفوما Rovuma فإن عليهم أن يقوموا بمزيد من أعمال الكشف والارتياد هناك ، وتحقيقاً لهذا الغرض انتدبت الدولة سنة ١٨٨٤ السنيور بنتو وكان في ذلك الوقت يشغل منصب قنصل البرتغال في زنجبار لرئاسة بعثة ترتاد هذه المناطق ، وإذ سقط الرجل صريع المرض فواصل زميله أغسطس كاردوزو الرحلة حتى بحيرة نياسا حيث رفع علم بلاده وحصل على إقرارات من الزعماء المحليين بالتبعية والطاعة لملكه.

وتحقيقاً للغرض ذاته سافر دي كارفالهو إلى قلب كاتنجا وحصل على إقرار مشابه من الموتينفوا The Mutionvua (الزعيم الأكبر في لوندا Lunda) ولكن المؤتمرين في برلين كانوا قد انتهوا من تقرير مصير هذه المنطقة من العالم قبل أن يصل دي كارفالهو إلى عاصمة الموتينفوا وراء نهر لولوا سنة ١٨٨٦ ولكن الرحلة لم تضع سدى ، فقد ساعدت المراكز التي أنشأها دي كارفالهو على مد حدود أنجولا الشرقية ليدخل فيها نهر الكاساي الذي اعتبر فيما بعد من أملاك ليوبولد الخاصة [٢٦].

**رابعاً : الساحل الشرقي :**

حقق البرتغاليون أيضاً نجاحاً على الساحل الشرقي وكان الدافع لهذا النجاح هو الرغبة في تأمين الطريق البحري للهند ولاسيما في خلال السنوات الأولى لاكتشافه[٢٧].

وفي سنة ١٥٠٢م أثناء رحلة داجاما الثانية للهند نزل في كلوه ، وتحت التهديد بحرق المدينة أجبر السلطان على الاعتراف بسيادة البرتغال على المدينة ودفع جزية سنوية رمزاً لهذه التبعية.

ويتبع ذلك خضوع زنجبار – التي يصفها البرتغاليون بأنها كانت في ذلك الوقت عبارة عن جزيرة خضراء ناضرة تعج حدائقها بأشجار الفاكهة والخضروات.

وفي سنة ١٥٠٥ غادر لشبونة أسطول كبير من ثلاثة وعشرين سفينة تحت قيادة فرانسيسكو دي ألميدا Francisco De Almeida بهدف تثبيت أقدام البرتغال في الموانئ الواقعة على الساحل الشرقي للقارة والقضاء على نفوذ المسلمين الذين كانت لهم السيادة التامة على الطريق التجاري ، ويعملون كوسطاء فينقلون منتجات الهند وغيرها من دول الشرق عبر المحيط الهندي والبحر الأحمر أو الخليج العربي إلى سواحل البحر المتوسط حيث تجد طريقها إلى أوربا ، وكانت السفن العربية قد وصلت إلى الصين وكانوا من قرون قد احتكروا هذا العمل.

ولتحقيق هذا الهدف استولى البرتغال على سفالة ، وكلوة التي قاومتهم بعنف فانتقموا منها بإشعال النار في المدينة بعد نهبها وأقام البرتغال في كلوة حصناً تركوا به حامية لهم.

وتقدموا إلى مالندي ، وقد دافع سكانها من العرب المسلمين ومن الأفارقة دفاع الأبطال عن مدينتهم ، وكان رد فعل البرتغال أنهم أشعلوا النار في المدينة فأتت على كل شيء ولم يتركوها إلا بعد أن أصبحت رماداً ، حتى أن شيخ المدينة المنكوبة والتي كانت قبيل مجيء البرتغال في أوج عظمتها كتب إلى زميله حاكم مالندي (Malindi) يصف كيف وجدوا المدينة بعد عودتهم إليها بعد أن نهبها الغزاة البرتغاليون وتركوها للنيران فقال "لم يتركوا فيها أي كائن لا رجلاً ولا امرأة ولا صغيراً ولا كبيراً حتى الأطفال ، كل الذين فشلوا في الهروب قتلوهم أو أحرقوهم ، وحذره من هذا الخطر الزاحف.

وبسقوط كلوة ، وممبسة سقط عمودان من أهم الأعمدة التي كانت تعتمد عليها السيادة العربية الإسلامية في شرق أفريقيا.

وفي سنة ١٥٠٦ أرسل أسطول برتغالي آخر من أربعين سفينة لشرق أفريقيا تحت قيادة البوكيرك (Albuquerque) فاستولى على لامو ، وبراوه ، كما استولى على

جزيرة سوقطوه وبنى فيها البرتغاليون حصناً أصبح قاعدة هامة لعملياتهم البحرية في المحيط الهندي.

وفي سنة ١٥٠٧ سقطت موزمبيق (Mozombique) في يد القائد البرتغالي دوارت دا ميللو (Duarte De Mello) واستقر البرتغاليون بها وبنوا مستشفى وكنيسة بالإضافة إلى ثكنات لجيوشهم – وكان هذا بداية لمستعمرة موزمبيق البرتغالية التي ظلت تحت سيطرة البرتغال حتى عام ١٩٧٥م حين نجحت المستعمرات البرتغالية بشرق القارة وبغربها (موزمبيق ، وأنجولا ، وغينيا بساو) في أن تسترد حريتها بعد سقوط حكومة ساليزار الدكتاتورية في البرتغال.

وزار البرتغاليون مدغشقر (مالاجاشي) كما اكتشفوا جزيرة سانت هيلانه ، وامتد نفوذهم على الساحل الشرقي حتى سفاله جنوباً ، أما في الشمال فقد اعتمدوا في بسط نفوذهم على صداقة شيوخ مالندي الذين استطاعوا أن يستميلوهم إلى جانبهم منذ أن قدموا لأول مرة للسواحل الأفريقية الشرقية مستغلين روح العداء التي كانت بين هؤلاء الشيوخ وشيوخ ممبسه ، وأقام البرتغاليون في ممبسه بعد سقوطها في أيديهم قلعة حصينة كانت بمثابة اليد الحارسة للنفوذ البرتغالي في هذا القطاع ، وكان لقائد هذه القلعة وكلاء في الموانئ المجاورة مثل كلوة ، وبمبا ، وزنجبار [٢٨].

وقد ظلت القارة الأفريقية بعد ذلك فترة طويلة من الزمن بعيدة عن ميدان الكشوف الجغرافية وذلك بسبب صعوبة بيئتها الجغرافية التي وقفت حائلاً أمام تقدم الرحلات الكشفية داخل القارة ، فالصحراء الكبرى في شمال القارة كانت عقبة أمام شعوب البحر المتوسط إذ منعتهم من التوغل جنوباً ، كما أن نهر النيل وهو طريق طبيعي للوصل بين شمال أفريقيا والأراضي السودانية لم يكن من السهل استخدامه وذلك لوجود عدد من الجنادل إلى الجنوب من أسوان ولوجود منطقة السدود عند بحر الغزال ، والتي كانت دائماً عقبة أمام المستكشفين ، ومثل نهر الكونغو الذي يوجد به شلالات تعرقل من استخدامه كطريق للتوغل داخل القارة ، ذلك إلى جانب طبيعة الساحل في المناطق

المدارية والاستوائية والتي كانت تمثل بيئة غير صالحة لسكنى الأوربيين ، ويضاف إلى هذه العوامل تجنب المستكشفين التوغل داخل الأراضي الأفريقية نظراً لضآلة مواردها الاقتصادية إذا ما قورنت بتلك الثروات الموجودة في العالم الجديد أو في جزر الهند الشرقية ، وأيضاً نظراً لسيطرة المسلمين عليها ولكل هذه الأسباب مجتمعة تأخر كشف الأجزاء الداخلية في القارة الأفريقية إلى حين ظهرت بعض المشاكل الهامة مثل مشكلة تجارة الرقيق ومشكلة نهر النيجر وغيرها من المشاكل التي فتحت أذهان الأوربيين لاكتشاف تلك القارة في خلال الفترة ما بين سنة ١٥٠٠ وسنة ١٧٨٨ التي تأسست فيها الجمعية الأفريقية African Association[٢٩] وبذلك فقد أدى هؤلاء الرحالة خدمات جليلة في ميدان الكشف الجغرافي.

**خامساً : كشف منابع نهر النيل :-**

ظلت مسألة كشف الغموض عن منابع نهر النيل تشغل بال محمد علي ، لذا قام بإرسال البعثات والحملات الكشفية إلى المنابع الاستوائية ففي عام ١٨٢٨ أرسل بعثة كشفية سارت في النيل الأبيض برئاسة إبراهيم كاشف وخورشيد بك ، وقد استطاعت هذه البعثة أن تصل إلى بلاد "الشلك" على جانبي النهر وتوغلت في بلاد "الدنكا" جنوباً حتى وصلت إلى ما وراء الخط العاشر من خطوط العرض الشمالية.

ومنذ أن تم فتح النيل الأبيض للملاحة على أثر نجاح الحملات الثلاثة التي قادها "سليم قبطان" بين عامي ١٨٣٩ – ١٨٤٢ اكتسبت تجارة الرقيق أهمية متزايدة في أفريقيا وانتشرت في أسواقها في مناطق "بربر وسنار وكوبي والفاشر والأبيض وسواكن" . وقد أدى ذلك إلى انتشار الفوضى وقامت الحروب الأهلية بين خاطفي الرقيق والسكان المحليين ، وهذا يكشف عن غياب القوة السياسية والأمنية التي تحكم هذه المناطق من أفريقيا ، كما يشكل أيضاً إغراء يجذب انتباه القوى الاستعمارية التي تسابقت فيما بينها للسيطرة على تلك المناطق.

لذا كان على مصر تشديد قبضتها على تلك المناطق خاصة التابعة لها منذ الفتح المصري للسودان في عشرينات القرن التاسع عشر [٣٠] فكانت الحملات الثلاثة والمشار

إليها ، فقد أرسلت الحملة الأولى عام ١٨٣٩ تمكنت من الوصول إلى دائرة عرض ٣٠ـ ٦ ْْ شمالاً بينما نجحت الحملتان الثانية والثالثة في عامي ١٨٤١ – ١٨٤٢ من الوصول إلى غندار على ٤٢ـ ٤ ْْ شمالاً . هذا وقد تمكن "ريبمان" Rebmann في عام ١٨٤٨ من اكتشاف جبل كليمنجارو وتوصل "كرايف Krapf" إلى اكتشاف جبل كينيا عام ١٨٤٩ [٣١].

الجدير بالذكر أن كثير من المستكشفين الأوربيين وجدوا أنه لا يمكن لأبناء جلدتهم استغلال المناطق السودانية دون شراء الأيدي العاملة هناك. كما أنهم هولوا في شرح مساوئ التجار العرب واصطيادهم الرقيق وتسخيرهم في الإنتاج ، واتفقوا جميعاً سواء أكانوا من الرحالة مثل بيرتون وسبيك أو المستكشفين مثل ستانلي أو المبشرين مثل لفينجستون [٣٢] ، أما "بيرتون Burtion" فقد قام برحلته المشهورة إلى أفريقيا والتي كان الغرض الأساسي منها الوصول إلى بحيرة تنجانيقا ، ومحاولة الوصول إلى منابع النيل التي اعتبرت غرضاً ثانياً للرحلة . وقد وصل بيرتون ومعه "سبيك speke" إلى زنزبار عام ١٨٥٦ ثم اتبعا أحد طرق العرب التجارية إلى بحيرة تنجانيقا فوصلا إليها في عام ١٨٥٨ ، وفي طابورة Tapora مرض بيرتون فواصل سبيك الرحلة شمالاً حيث اكتشف بحيرة فيكتوريا ثم عاد بيرتون ليخبره بأنه اكتشف البحيرة التي ينبع منها النيل إلا أن بيرتون قلل من أهمية اكتشافه وأن هذه البحيرة ما هي إلا سلسلة من المستنقعات ثم عادا إلى زنزبار في ١٨٥٩ ومنها إلى إنجلترا.

عاد سبيك ومعه "جرانت Grant" في رحلة ثانية إلى أفريقيا عام ١٨٦٠ وذلك لتأكيد اكتشافه السابق لبحيرة فيكتوريا وكمنبع لنهر النيل فوصلا عام ١٨٦٢ ودارا حول ساحلها الغربي واكتشف مساقط "ريبون" وأكد أن النيل يخرج منها [٣٣].

عمل إسماعيل على التوسع جنوباً مع النيل الأبيض وبحر الجبل جنوب إقليم البحيرات ومديرية خط الاستواء ومنابع النيل فأسند ذلك المستكشف "السير صامويل بيكر S.S.Baker" بتوصية من ولي عهد إنجلترا عند زيارته لمصر في ١٨٦٩ [٣٤] ولم يكن

الخديو إسماعيل موفقاً في اختيار "بيكر" إذ كان داعية للاستعمار الأوربي في أفريقيا بعد رحلته الكشفية الأولى للقارة واكتشافه بحيرة "ألبرت نيانزا" ١٨٦٤ ، وقد رحبت إنجلترا بإسناد الحملة المصرية إلى بيكر لأنه يعد خير من يعاونها في زيادة معرفتها بمنطقة أعالي النيل لنشر نفوذها ومقاومة تجارة الرقيق هناك . وفي ٢٧ مارس ١٨٦٩ وقع بيكر عقد الاستخدام بالدخول في خدمة الحكومة المصرية أربع سنوات [٣٥].

توجه بيكر إلى مأمورية النيل الأبيض في أغسطس ١٨٧٠ لإعادة الملك "كتكير" لمكوكية أهالي الشلك ، وكان ذلك على غير رغبة الإدارة المصرية [٣٦] ، لذا قام بيكر باستبدال العساكر المصرية بعساكر سودانية واتهم المصريون بالتمارض وعدم المنفعة [٣٧] وقد رحلت القوات من الخرطوم إلى الشلك بالفعل في نوفمبر ١٨٧٠ [٣٨] وبعودة بيكر إلى لندن احتفلت به الجمعية الجغرافية ومنحته ميداليتها الذهبية ومنحته الحكومة لقب فارس ، وقام بمهمته الشهيرة في أعالي النيل ١٨٦٩ – ١٨٧٢ [٣٩] .

ومن المستكشفين "غوردن Gordon" في أعالي النيل الأبيض الذي اكتشف صلاحية المجرى المائي للملاحة النهرية من جنوب "الرجاف" إلى "لابورية" بالرغم من وجود بعض الجنادل وهي المسافة التي أثبت بيكر عدم صلاحيتها قبل ذلك وفي أكتوبر ١٨٧٥ غادر غوردن لابوريه جنوباً حتى وصل إلى شلالات "مكدي" الشهيرة باسم "فولا" كما تتبع المجرى المائي لنيل فيكتوريا وعلى الرغم من نجاحه في استكشافاته الجغرافية بمنطقة أعالي النيل فإن النزعة الاستعمارية قد سيطرت عليه وأعلن في نوفمبر ١٨٧٥ أن هذه المناطق يجب أن تحكمها بريطانيا لإفادة سكانها حضارياً على عكس الوجود المصري الذي لم يعد قادراً على حكمها [٤٠] ، ثم عاد إلى لندن تاركاً الحرية التامة للإنجليز الذين أنشأوا شركة شرق أفريقيا الإمبراطورية البريطانية لاستغلال الأراضي الواقعة بين زنزبار وهضبة البحيرات [٤١].

كان ليفنجستون قد كتب في مذكراته أنه سمع من الأهالي بالقرب من "كاتنجا" أنه يوجد هناك تل به أربع نافورات تكون كل واحدة منها نهراً ، اثنان من هذه الأنهار يتجهان شمالاً ويصبان في مصر والنهران الآخران يتجهان جنوباً إلى الأجزاء الداخلية للحبشة

وعمل على القيام برحلة لكشف ذلك ، إلا أنه توفى في عام ١٨٧٣ فتولى "ستانلي" حركة الكشف الجغرافي بعده فقام برحلتين الأولى من ١٨٧٤ إلى ١٨٧٧ قام فيها بمسح لبحيرة فيكتوريا ودار حول سواحلها ثم اتجه إلى نهر الكونغو وأوصى بتسميته باسم ليفنجستون ، أما الرحلة الثانية في عام ١٨٨٥ كان الغرض منها إنقاذ "أمين باشا" من القبائل الإفريقية التي حاصرته في جنوب السودان ، وفي هذه الرحلة قام ستانلي بإتمام اكتشاف الأجزاء الباقية من منابع النيل واكتشف جبال رونزوري [٤٢].

**سادساً : جنوب أفريقيا :**

عام ١٦٦٠ وجه الهولنديون أولى حملاتهم الاستكشافية إلى المناطق الشمالية لما سمعوه عن ثرائها وعن وجود مملكة تعرف باسم "مونوموتاب Monomotape" وأثمرت الرحلة عن الوصول إلى نهر "أوليفانتش Olifants" كما استطاعوا الوصول إلى خليج "موصل Moasl Bay" عام ١٦٦٨ ثم إلى "ليتيل ناماكولاند Little Namaqualand" عام ١٦٨٥ حيث توجد مناجم النحاس – وبذلك تركزت معظم الرحلات في شبه جزيرة الرأس.

وخلال القرن الثامن عشر اكتشفت "ناتال Natal" عام ١٧٠٥ وخليج "ديلاجو Delagoe" عام ١٧٢٠ ، وفي عام ١٧٣٦ قام الهولنديون برحلة تجاه الشرق حيث اصطدموا بقبائل "البانتوه Panto" فقتل عدد منهم وفر الباقون إلى مدينة الرأس بعد أن جمعوا كثيراً من المعلومات الجغرافية ، وفي عام ١٧٥٢ دار "بوتلر Beutler" حول الساحل الجنوبي لأفريقيا ووصل إلى نهر "كاي Kay" ، كما وصل الهولنديون عام ١٧٦٠ إلى نهر الأورانج وفي عام ١٧٧٢ تمكن "جوردون R.J.Gordon" من الوصول إلى نقطة التقاء نهر "فال Vaal" بالأورانج ، كما وصل "باترسون" عام ١٧٧٨ إلى إقليم "كافيير Kafir" بالقرب من "جريت فيش ريفر Greal Fish River" وأصبحت معظم الأراضي التي تقع حول نهر الأورانج معروفة مع نهاية القرن الثامن عشر [٤٣].

ومن الرحلات الكشفية الفرنسية كانت رحلات "بينيه Penee" عام ١٨٦٠ إلى الجهات الاستوائية ، ولقد كان هؤلاء المستكشفون يحملون معهم شعارات تنادي بإدخال الحضارة الأوربية الحديثة في جهات أفريقيا المختلفة ، ولكن هذه الشعارات سرعان ما كانت تتلاشى لتظهر بعدها أطماع كل دولة أوربية يعمل لحسابها المستكشفون مما ساعد على انتشار حركة الاستعمار الأوربي في القارة [٤٤].

مما سبق يتضح أن الأوربيين توغلوا في قارة أفريقيا وعرفوا ما بها من أسرار، رغم أن التجار العرب سبقوهم إلى القارة وقاموا بنشر الدين الإسلامي فيها وكان لهم فيها معارف وأصحاب بل منهم من بلغ الوزارة والحكم في بعض الممالك الإفريقية.

obeikandl.com

## هوامش الفصل الأول

١- د. فرغلي علي تسن : تاريخ أوربا الحديث والمعاصر ، دار الوفاء. لدينا الطباعة والنشر ، إسكندرية ، ٢٠٠١ ، ص ٢٩

٢- د. شوقي عطاالله الجمل ، د. عبد الله عبد الرازق إبراهيم ، تاريخ المسلمين في أفريقيا ، ص ١٨.

٣- د. فرغلي علي تسن ، ص ٣٠.

٤- د. سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطى ، جـ١ ، التاريخ السياسي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط٦ ، ١٩٧٥ ، ص ٥٥٩.

٥- د. فرغلي علي تسن ، ص ٣٠.

٦- د. يسري الجوهري : الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية ، منشأة المعارف بالإسكندرية ، ط٣ ، ١٩٧٦ ، ص ١٥٢.

٧- د. فرغلي علي تسن ، ص ٣٢.

٨- د. يسري الجوهري ، ص ١٥٣ – ١٥٥ ، وانظر ، د. عبد العظيم رمضان : تاريخ أوربا والعالم في العصر الحديث ، جـ١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧ ، ص ٢١٣.

٩- د. فرغلي علي تسن ، ص ٣٢ ، وانظر ، د. محمد محمود الصياد ، أثر العرب والمسلمين في النهضة الأوربية في الجغرافيا ، ضمن بحوث أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية ، إشراف، مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧ ، ص ٢٩٢.

١٠- نفسه ، بحث ، د. حسنين فوزي : المعارف الملاحية العربية في القرون الوسطى وأثرها في عصر النهضة ، ص ٣٠٤ ، ٣٠٥.

١١- د. شوقي الجمل ، د. عبد الله عبد الرازق ، ص ١٨.

١٢- د. حسنين فوزي ، المرجع السابق ، ٣٠٥.

١٣- د. الجمل ، د. عبد الله عبد الرازق ، ص ١٨.

obeikandl.com

١٤- د. يسري الجوهري ، ص ١٥٥ ، ١٥٦ ، وانظر ، د. عبد العظيم رمضان ، ص ٢١٣ ، ٢١٤ ، محمد عبد الرحيم مصطفى وآخرون : أصول العالم الحديث ، دار القاهرة للطباعة ، ١٩٥٧ ، ص ٥٣.

١٥- د. الجوهري ، ص ١٥٨ – ١٦٣.

١٦- جيمس دفي ، ترجمة ، الدسوقي حسنين المراكبي : الاستعمار البرتغالي في أفريقيا ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٣ ، ص ٥٠ – ٥٣.

١٧- نفسه ، ص ٥٣ ، ٥٤.

١٨- د. الجوهري ، ص ١٦٣.

١٩- جيمس دفي ، ص ١١٢.

٢٠- نفسه ، ص ١١٣ ، ١١٤.

٢١- نفسه ، ص ١١٤ ، ١١٥ ، د. الجوهري ، ص ١٧٤.

٢٢- جيمس دفي ، ص ١١٥ – ١٢١.

٢٣- د. الجوهري ، ص ١٧٦.

٢٤- دفي ، ص ١٢١ ، ١٢٢.

٢٥- د. الجوهري ، ص ١٦٤.

٢٦- دفي ، ص ١٢٢ ، ١٢٣.

٢٧- د. الجوهري ، ص ١٦٣.

٢٨- د. الجمل ، د. عبد الله عبد الرازق ، ص ١٩ ، ٢٠.

٢٩- د. الجوهري ، ص ١٥٧.

٣٠- د. عبد العليم خلاف : كشوف مصر الأفريقية في عهد الخديوي إسماعيل ١٨٦٣ – ١٨٧٩ ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٩٩ ، ص ١١ ، ١٨ ، ١٩.

٣١- د. الجوهري ، ص ١٧٠.

obeikandi.com

٣٢- د. جلال يحيى : مصر الإفريقية والأطماع الاستعمارية في القرن التاسع عشر ، دار المعارف ، ١٩٨٤ ، ص ٥٦ ، ٥٧.

٣٣- د. الجوهري ، ص ١٧٠ ، ١٧١.

٣٤- د. جلال يحيى ، ص ٦٧.

٣٥- د. عبد العليم خلاف ، ص ٤٦ ، ٤٧ ، د. عز الدين إسماعيل : الزبير باشا ودوره في السودان في عصر الحكم المصري ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٨ ، ص ٦١ ، ١٠٣.

٣٦- د. فرغلي علي تسن : الشلك في جنوب السودان وتجارة الرقيق فيها ١٨٢٠ – ١٨٧٧ ، ص ٢٥٦ ، دار الوثائق القومية ، دفتر ١٨٣٦ معية تركي ، ترجمة الوثيقة رقم ٦ مرور ص ٣٧ في ١٨ جمادي الأولى ١٢٨٧ من حكمدارية السودان إلى المعية السنية.

٣٧- نفسه ، دفتر ١٨٤٩ معية تركي ، ترجمة الوثيقة ٢ ص ٣ في ٢٤ رجب ١٢٨٧ من حكمدارية السودان إلى المعية السنية.

٣٨- د. نفسه ، دفتر ١٢ عابدين ، وارد تلغرافات ، وثيقة ٤١١ في ١٨ شعبان ١٢٨٧ من حكمدارية السودان إلى مهر دار الخديوي.

٣٩- د. عز الدين إسماعيل ، ص ١٠٣.

٤٠- د. عبد العليم خلاف ، ص ٦٣ – ٧٥.

٤١- د. جلال يحيى ، ٧٥.

٤٢- د. الجوهري ، ص ١٧٢ ، ١٧٣.

٤٣- نفسه ، ص ١٦٤ ، ١٦٥.

٤٤- د. عبد العليم خلاف ، ص ٢٢

obeikandi.com